الْقَوْل الأمثل في ليلة النّصف من شعبان بين تحويل القِبلة والتّحوّل إلى الأفضل

2024-02-23

الحمدُ لله رب العالمين. خصّنا بخير كتاب أُنزل. وأكرمنا بخير نبيّ أُرسل، وأتمّ علينا النِّعمة، فهدانا إلي ما فيه صلاحنا وفلاحنا. فقال تعالى في سورة البقرة: ((وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)). نحمده تعالى ونشكره أنْ خَصّنا ببعثة خير الأبرار، وميّزنا بقِبْلة نتّجه إليها في الصلوات والأذكار، إستجابة لرغبة حبيبه المصطفى. صلى الله عليه وآله وسلم. بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة. كانت هذه أمنية يتمنّاها. فامتنّ الله عليه بقوله: ((قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها)). وأنزل عليه في خير الكلام: ((وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ)). وَأَشْهَدُ أَنْ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، الكريم المنّان، مشعِّب الخيرات في شهر شعبان، وجاعل ليلةَ نِصْفه مِنْ أكثر الليالي خيراً، ومِنْ أعظمِها عند الله عزّ وجلّ قَدْراً، نشر فيها أعلام نعمه نشرا. وأطلع لها في سماء الفضائل فخرا. وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَخَلِيلُهُ، قرّبه ربّه إليه وأدناه. وعلى جميع خَلْقِهِ اصطفاه. وما زال يعطيه ما يرجوه ويتمنّاه. حتى أَنْزَل عليه: ((وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)).

هذا محمّدُنا للحقّ أرشَدَنا * ومِنْ بحار الرَّدَى والهُلْكِ أنقذنا

هذا الذي جاء بالحقّ الْمُبِينِ لنا * وأذهب الشِّرْك بالآيات والحُجَجِ

صلّوا على المصطفى ذي الْمَنْظَرِ البَهِجِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد ذي الخُلُق العظيم. والقلب الرحيم. وعلى آله ذوي السيادة والتكريم. وصحابته المتوّجين بتاج الجلال

والتعظيم. صلاة تشفي بها منّا العليل والسقيم. وتُغني بها منّا الفقير والعديم. وتحفظ بها منّا الحاضر والغائب والمسافر والمقيم. وتسكننا بها فسيح جنّاتك دار الفوز والكرامة والنعيم. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. ما زلنا نعيش في ظلال شهر شعبان. ذي الأحداث الكثيرة. والذكريات الجليلة، التي من بينها تحويل القِبلة. الذي غيّر خريطة الدعوة الإسلامية، فمِن العيب أن نتوجّه إليها في كل يوم على الأقلّ خمس مرات. ولا نعرف تاريخ قِبلتنا، ورمز وِحدتنا، وشعار قوّتنا. وإنّ موقع القِبلة في الأحكام الشرعية عظيم: فهي شرطٌ من شروط الصلاة الأربعة: طهارة الحدث، وطهارة الخبث، وسِتر العورة، واستقبال القبلة، وإليها يَتّجه المسلم عند الدعاء والذكر وقراءة القرآن، وإليها يُوجِّه المسلم ذبيحته أثناء ذبْحها، وإليها يُوَجَّه الميّت عند خروج روحه وعند وَضْعه في قبره، كما لا ينبغي للمسلم أن يستقبلها أو يستدبرها وهو يقضي حاجته من البول والغائط. وهذه القِبلة كانت في بداية الهجرة إلى المسجد الأقصى سبعة عشر شهرا كما روى البخاري، وكان نبيّنا صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة يُقَلِّب وجهه في السماء، في رغبة واضحة، دائم التطلّع إلى الله سبحانه. ليوجّهه إلى القِبلة. إلى الكعبة المشرَّفة. أيّها المسلمون. وبهذا يعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف ينبغي للمسلم أن يتطلَّع دَوْما إلى الأفضل في الأعمال، أن يتشوّف إلى الإنتقال من حَسَن إلى أحسن، لأنّ المسجد الحرام يحتضن أوّل بيت وُضع للناس، ولأنّ الصلاة فيه بمائة ألف صلاة في غيره، بينما تكون في المسجد الأقصى بخمسمائة. وفي منتصف شعبان على المشهور من السنة الثانية من الهجرة، استجاب الله تعالى لهذا التطلّع النبوي المبارك، فأَمر بالإتّجاه إلى الكعبة المشرّفة. يقول الله تعالى في سورة البقرة: ((قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)). أيّها المسلمون.

وحادثة تحويل القِبلة تحمل في طيّاتها معانٍ عديدة. وفي جوانبها دروسًا تربويةً مديدة. أوّلا: لقد جعل الله القِبلة أوّلاً إلى المسجد الأقصى. حتى يربط المسلمين بالقدس، حتى يسجّل في تاريخ الإسلام أنّ القدس هي أُولى القِبلتَيْن؛ بل إنّ تحويل القِبلة هو بمثابة الربط الروحي بين المساجد الثلاثة، لأنّ القِبلة تحوّلت في المسجد النبوي من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام. والحديث عن القدس اليوم حديث ذو شجون، يبعث في القلوب الأحزان، لأنّنا نتذكّر القدس اليوم وهي تعاني وتنادي؛ إنها تعاني من التهويد الذي يمارسه الصهاينة علنًا، تحت حماية الصليبية العالمية المصهينة. إنها تعاني من هدم بيوت أهلها، وانتزاع هويّات سكّانها، ومصادرة أراضيها. إنها تعاني من سرطان الإستيطان. تعاني أرضها المقدّسة من المستوطنات المدنّسة. ولسان حالها ينادي: يا للمسلمين! ولكن لا حياة لمن تنادي. أيّها المسلمون. ثانيا: لقد جعل الله تعالى القِبلة أوّلاً إلى المسجد الأقصى، ليتعلّم الصحابة، ومَن تبعهم إلى يوم الدين، كيف يتجرّدون من التعصّب للمكان، هذا التعصّب الذي شتّت الأمّة اليوم طرائق قِدَدا، فأصبح كل فريق يبكي على أرضه وطائفته، ويحاربُ مِن أجله أخاه المسلم، فيظلمُه ويحتقرُه ويخذُلُه، في حين أنّ المسلم أخو المسلم. وإن كان وراء الحدود الجغرافية المصطَنَعة؛ ومِن المعلوم أنّ العرب في جاهليّتهم تعلّقوا أيّما تعلّق بالكعبة: يعظّمونها، يمجّدونها، يتقرّبون إليها، يحبّونها حبًّا جمًّا، ومِن الصعب بمكان صَرْفُهم عنها، فأراد الله تعالى أن يكونَ تعظيمُ المسلمين للكعبة تعظيما لله سبحانه أوّلاً، وأن يجرّدهم من كل تعصّب لجنس أو لغة. أو لون أو قومية. أو أرض أو بيت. أو تاريخ، ولو كان مكة والكعبة، فاختار لهم فترة من الزمان المسجد الأقصى. ليُظهر مَن يتّبع الرسول صلى الله عليه وسلم مجرَّدًا من كل تعصّب، وليُفرز ويُميّز مَن يَتّبع الرسول لأنه رسول الله. عمّن يتّبعه لأنه أبقى على الكعبة قِبلةً للصلاة، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة البقرة: ((وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ

لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ)). أيّها المسلمون. ثالثا: لقد تحوّلت القِبلة إلى المسجد الحرام، ليميّز الله عز وجل المؤمن الصادق من المتردّد المنافق، وتحويل القِبلة هي بمثابة امتحان كشف الله تعالى به الأستار عن المنافقين، لقد صنّف تحويل القِبلة الناس إلى أربعة أصناف: المؤمنون الصادقون قالوا: سمعنا وأطعنا، والمشركون قالوا: ما بال محمد عاد إلى قِبلتنا، واليهود قالوا: ما بال محمد ترك قِبلتنا، والمنافقون دَوْرهم التشكيك. وضرب مصداقية الإسلام من الداخل، قالوا: إذا كانت صلاة محمد إلى البيت الحرام هي الصحيحة. فما كان قد صلى إلى الأقصى غير صحيح. وإن كانت صلاته إلى الأقصى هي الصحيحة، فما يصلي الآن إلى الكعبة غير صحيح، فنسي الخبثاء أنّ لُبَّ العبادة ورُوحَها النابض، هو امتثال أوامر الله عز وجل أينما كانت، ولم يدر السفهاء أنهم بهذه الحملة المسعورة ضد تحويل القبلة يقدّمون دليلا قويًّا على أنّ القرآن من عند الله، لأنّ الله تعالى أخبر عن ذلك قبل أن يُقْدِمُوا عليه، فقال سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ((سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا؟ قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)). وروى الترمذي من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: ((لَمَّا وُجِّهَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الكَعْبَةِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ بِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)). أيْ وما كان الله ليضيع صلاتَكم إلى بيت المقدس بل ستثابون عليها وتؤجرون. أيّها المسلمون. رابعا: لقد تحوّلت القِبلة إلى الكعبة المشرّفة لتُ͏ُصبح رمْز وحدة المسلمين، يتوجّهون إليها أينما كانوا، في تلكم الحلقات المستديرة الخلاّبة. التي نشاهدها حول الكعبة، تبتدئ في المسجد الحرام، وتمتدّ امتداد خيوط النُّور والظلمة على الكرة الأرضية، فأصبحت بذلك أحد مقوّمات الوحدة بين المسلمين. وما أكثرها! وإنّ أمّة قِبلتها واحدة، وقرآنها واحد، وعقيدتها واحدة، واقتصادها متكامل فيما بينها، ومناطقها الجغرافية متّصلة، وإنّ

أمّة هذه حالتها. لجديرة بوحدة متماسكة، لجديرة بتوحيد الكلمة على أساس من كلمة التوحيد، لو ملكت قوّة الإرادة وحُسن الإدارة، ولكن أعداء الإسلام، يضعون عراقيل شتّى، ويميلون بكل أثقالهم ضد تحقيق هذه الوحدة، لأنهم يعلمون أنها سوف تكون حجر عثرة لمطامعهم ومفاسدهم الظالمة. خامسا: لقد تحوّلت القِبلة إلى الكعبة المشرّفة، لكي يميّز الله تعالى الأمّة المسلمة عن غيرها من الأُمم، فاليهود والنصارى يتوجّهون في طقوسهم إلى القدس، فأراد الله عز وجل أن يستأثر المسلمون بأوّل بيت وضع للناس، ببيت رَفع قواعده أبو الأنبياء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فالكعبة المشرّفة هي رمز وحدة الأمّة، وعنوان تماسكها، ما دامت تعتصم بوجهتها، وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول: ((وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ)). أيّها المسلمون. لقد خلّد القرآن الكريم حادثة تحويل القِبلة لتكون مدرسة ننهل من تعاليمها. فإذا كان المسلمون تحوّلوا فما أحوجنا إلى أن نتحوّل مثلهم من تحويل حالنا مع الله. تحويل حالنا من المعاصي والذنوب إلى العبادة والطاعة. تحويل حالنا من الكسل إلى العمل. تحويل حالنا من الحقد والحسد، إلى الحب والإخاء والتراحم. قال ربنا في سورة الرعد: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)). فالتحوّل الداخلي والتطهير القلبي يتجلّى ذلك في ليلة النصف من شعبان. ففيها تُغفر الذنوب. ليس بصيام ولا صلاة ولا كثرة عبادة. وإنما بتطهير القلب من البغضاء والشحناء. ففي الحديث الصحيح عن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللَّهَ لَيَطَّلِعُ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَيَغْفِرُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ، إِلَّا لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ)). وفي رواية أخرى: ((فَيَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِين، وَيُمْلِي لِلْكَافِرِينَ. وَيَدَعُ أَهْلَ الْحِقْدِ بِحِقْدِهِمْ حَتَّى يَدَعُوهُ)). فما أحوجنا إلى التحوّل القلبي، والتطهير الداخلي من الشحناء. والحقد والبغضاء. حتى تكتب لنا المغفرة، ويكون التهيّؤ لشهر رمضان. شهر القرآن. أيّها المسلمون. ولقد ورد في فضل هذه الليلة

المباركة. لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، أحاديث كثيرة متعدّدة. يقوّي بعضها بعضا. ومن المقرّر عند علماء الحديث. أنّ الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال. ومن الأحاديث الواردة في فضل هذه الليلة. ما رواه ابن ماجة في سننه. والبيهقي في شعب الإيمان. وعبد الرزاق في مصنّفه. عَنْ سيّدنا عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كرّم الله وجهه ورَضِيَ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:((إِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَقُومُوا لَيْلَهَا وَصُومُوا نَهَارَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ فِيهَا لِغُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: أَلا مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ أَلاَ مِنْ مُسْتَرْزِقٍ فَأَرْزُقَهُ؟ أَلا مِنْ مُبْتَلَى فَأُعَافِيَهُ؟ أَلا كَذَا، أَلا كَذَا، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ)). فينبغي للمسلم أن يجتهد في إحياء هذه الليلة المباركة بالصلاة والذكر والدعاء وتلاوة القرآن. فمن أحياها أحيا الله قلبه يوم تموت القلوب. وأقلّ ما يحصل به الإحياء أن يصلّي العشاء والصبح في جماعة. كما جاء في صحيح مسلم من حديث سيّدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:((من صلّى العشاء في جماعة فكأنّما قام نصف الليل، ومن صلّى الصبح في جماعة فكأنّما صلّى الليل كلّه)). وهذا أقلّ القليل الذي يحصل به إحياء هذه الليلة المباركة. ومن زاد فهو خير له. قال تعالى في سورة البقرة:((وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى واتّقون يا أُولي الألباب)). اللهم إنّا نسألك بأحبّ الأسماء إليك. وبأكرم الأنبياء عليك. أن تجعلنا ممّن سبقت لهم منك العناية. واقسِم اللهم لنا في هذه الليلة المباركة من خيراتها وبركاتها. وأسرارها وأنوارها. بأوفر حظّ ونصيب. إلهنا بالتجلّي الأعظم. في ليلة النصف من شهر شعبان المكرَّم. التي يُفْرَق فيها كل أمْر حكيم ويُبرَم. أكشف عنّا من البلاء ما نعلم وما لا نعلم. واغفر لنا ما أنت به أعلم. بجاه نبيّك الأكرم. سيّدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وسلَّم. يَا مَنْ إِذَا وَعَدَ وَفَى، وَإِذَا أَوْعَدَ عَفَا، إرْحَمْ مَنْ هَفَا وَجَفَا، وَشَفِّعْ فِينَا حبِيبَك الْمُصْطَفَى، سيّدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم. وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ صَفَا وَوَفَا، وَبِاللَّهِ اكْتَفَى. وكان آخِر كلامه من هذه الدنيا

الفانية. شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأنّ سيّدنا محمّدا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلَّم. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخِر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين. اهـ